الفصل الثالث

عندما يموت المتسولون

عندما يموت المتسولون وتبطل مشاهدة النجوم
تنشر السموات بنفسها نبأ موت الامراء.

شكسبير، يوليوس قيصر

كان أوربان الثاني هو البابا الذي ناشده الامبراطور البيزنطي لمديد المساعدة اليه وكان هذا البابا الذي كان مثيراً للخشية والاعجاب قد ولد في تشاتلون سورمارن من عائلة فرنسية نبيلة، وأصبح راهباً في دير كلوني قبل الثلاثين من العمر وبرتبة كردينال رئيساً لأساقفة اوستيا قبل الأربعين، وفيما بعد في آذار 1088 أصبح بابا، عندما كان في السادسة والأربعين.

ولم يكن ليستطيع أن يرتقي عرش القديس بطرس في وقت أكثر صعوبة، فقد كانت البابوية والامبراطور الألماني قد أوقفا نفسيها على صراع على السلطة لسنين، وفي وقت انتخاب أوربان كان الأمبراطور هوهنري الرابع، وكانت هناك حادثة مشهورة في أيام أحد أسلاف أوربان، عندما اضطر الامبراطور للانتظار بضعة دقائق حافي القدمين مرتدياً ألبسة التوبة في ساحة القلعة في كانوسا ليتلقى الغفران من البابا غريغوري السابع الذي حرمه كنسياً، وولت تلك الأيام، وانقلبت الظروف إلى حد بعيد، وكان هنري مبتهجاً بانتصاره في كل مكان، كما كان مدعوماً من بابا آخر منافس (مرشح مخفق في الانتخابات الباباوية) يحكم في مدينة روما نفسها وكان لا يطيق البابا أوربان

الذي كان يعتبره رجلاً عنيداً، ولم يكن قد مضى وقت طويل منذ أن كان قد سجنه في ألمانيا بسبب مساندته الصلبة للبابا غريغوري.

ومات غريغوري وجاء أوربان وقد أخذ على نفسه مهمة إعادة توكيد سلطة البابوية وقدرت لمجموعة هائلة من مواهبه ومقدراته إعادة التوازن بينه وبين الامبراطور الالماني، فقد اتصف بأنه رجل نبيل المحتد، راسخ الإيمان، دمث ومحب للسلام، يكره سفك الدماء، كما كان يتجنب الخلافات، ففاز بقلوب الناس بجمعه صفة التحلي بالصبر والثقة المتأصلة، حتى أنه ما كان ليحصل على منصبه ويكون في مركز البابا لفترة خمس سنوات حتى اعترف كل شخص بأنه الزعيم الروحي للعالم المسيحي الغربي، أما وقد فاز بالكنيسة الغربية فقد تحول شرقاً في محاولة لتحسين العلاقات المتوترة مع البيزنطيين، واستجاب الكسيوس بحرارة وسرعة، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح الرجلان على الأقل بالمراسلة، صديقين حميمين، ونتيجة لهذا أرسل الكسيوس بمبعوثين بيزنطيين إلى المجتمع الأعظم لدى أوربان حيث عقد في كريمونا آذار 1095، وهناك شرح السفراء بالنيابة عن الامبراطور مأزق المسيحيين في الشرق تحت هيمنة الاتراك، وصعد الأساقفة المجتمعون وكذلك أوربان على نحو جدي من هول الخطر، ومن المؤكد أنه شرع في كريمونا بالتفكير بدعوة المسيحيين في الغرب من أجل استجماع القوة والشجاعة لمد يد المساعدة لاخوانهم وأخواتهم في النصرانية في الشرق، وللحظة الأولى لم يقم بأي عمل، فقد كان رجلاً محترساً، وكان في حاجة إلى بعض الوقت قبل أن يطلق الفكرة التي خطرت إليه.

وفي بداية شهر تشرين الثاني من نفس العام عزم على الشروع بالعمل، فتنقل على مهل عبر بلاد فرنسا شاغلاً نفسه بشؤون عديدة للكنيسة، التي كانت بحاجة إلى عنايته، وفي آخر الأمر قام بدعوة أساقفة فرنسا وجاراتها إلى مجلس شورى يعقد في كلير مونت فاجتمع هناك أكثر من ثلاثمائة أسقف في 18 تشرين الثاني، حيث انشغلوا بعملهم الاعتيادي المشترك خلال الأيام

الأولى: فقد كان الملك فيليب ملك فرنسا محروماً كنسياً بتهمة الزنا، وكذلك أسقف كامبري لشرائه منصب الكهنوتية، ثم أعلنت هدنة الرب وأكدت على الجميع، ووطدت قضية السيادة لأسقفية ليون بين أسقفين متنافسين. وقبل أن ينهي المجلس انعقاده أعلن أوربان أنه يريد أن يعلنها صرخة مدوية على الجميع قبل أن يعود كل منهم إلى وطنه، وذلك في جلسة عامة تعقد يوم الثلاثاء 27 تشرين الثاني.

وكانت الحشود التي قدمت للاجتماع في تلك الجلسة للاستماع إلى ما يمكن أن يقوله البابا ـ حشوداً غفيرة إلى درجة أن القاعة في الكاتدرائية لم تتسع لهم، ونصبت منصة عالية خارج باب المدينة الشرقي في حقل مفتوح ليقف فوقها البابا الذي كانت لديه قدرات عديدة، منها إجادته لفن الخطابة الذي استغله إلى أبعد الحدود، بحيث أصغى جمهوره مأخوذاً في تلك المناسبة، وأخبرهم البابا أن المسيحيين في الشرق قد ناشدوه النجدة لأن الأتراك كانوا يتقدمون داخل الممالك والأراضي المسيحية، ويعاملون السكان الأبرياء رجالاً ونساء بقسوة وشراسة وينتهكون كنائسهم المقدسة ويدنسونها وكان هذا غير سار بما فيه الكفاية، ولكن أن تسمع أنباء عن تدنيس القدس ذات الأماكن المقدسة الكثيرة وإدخال الرعب والاهانة والأعمال الوحشية التي كان يخضع لها الحجاج إلى الأرض المقدسة، فتلك كانت جميعاً مزعجة جداً، وكان الوقت مناسباً بالنسبة للمسيحيين في الغرب أن ينهضوا في حنق شرعي، ويسيروا لينقذوها. فليوقفوا شن الحروب بين بعضهم البعض في الأوطان،ودعوهم يشنوها حرباً مقدسة ضد أعداء الرب الذي سيهديهم، ويكتب لهم النصر، ووعد البابا أوربان أولئك الذين سيقتلون في القتال بالغفران، والتغاضي عن جميع ذنوبهم زماناً ومكاناً، فلماذا يمضون حياتهم في العيش والبؤس وارتكاب الخطايا هنا، في حين يستطيعون أن يلقوا السعادة في هذا العالم، والنجاة في العالم الآخر كجنود المسيح الذي عاش ومات في تلك الأرض؟ فلا مسوغ لأي تأخير بأن الوقت مناسب جداً للشروع بالعمل،

وعندما يحين الصيف ينبغي أن تعبأ جيوش المسيحية وتستعد للتحرك.

لقد كانت الأعمال والكلام في مناسبات خاصة اندفاعاً، كما كانت الاستجابة فورية غامرة، وتعالت صرخات بأن «هذه إرادة الرب» كمتنفس للعواطف التي أثارها أوربان فيهم، وركع أمام البابا أسقف لي بوي واسمه ادهمر، وتوسل إليه أن يأذن له بالانضمام إلى الحملة إلى الأرض المقدسة، وبدأ الكاردينال يتلو صلاة الغفران بصوت عال، وانضم إليه الآلاف. وعندما انتهت إلى أوربان أعطاهم كلمة الغفران، وأخبرهم أن يعودوا إلى منازلهم ويصلوا من أجل ما أخبرهم به، وأذن لهم بالانصراف تحت ظل بركاته، ولم يكن رحيلهم فيه إشارة لعودتهم إلى الحياة العادية أو نهاية حماسهم، بل على النقيض، شرع البابا بعمل شيء أعظم مما توقع، وانتشرت دفقات هائلة من الحماسة من كليرمونت عبر أنحاء فرنسا لتصب في جميع أنحاء البلدان الأوروبية الغربية ليشحذ سكانها اتقاداً. كما شرع الأساقفة والكهان والناسكون في كل مكان يبشرون بحرب مقدسة ضد الأتراك، لتحرير الأرض المقدسة. ولم يأت أحد بنتيجة أعظم مما أتى بها نساك صغير فوق حمار.

فقد كان الكاهن بطرس الناسك، عندما باشر الدعوة، رجلاً في أواسط العمر، ذا وجه أسمر طويل عابس وحزين وقبيح مثل وجه الحمار الذي كان دوماً يمتطيه، ولم يكن يرتدي سوى ما اعتاده ناسك قذر كثيراً. مع عباءة بالية، وقد مضت أعوام على قدميه الحافيتين دون أن تغسلا، وهو لم يأكل اللحم أو الخبز، بل اتقصر على وجبة سمك وخمر، ويبدو أنه كان قد حاول مرة أن يحج إلى القدس، ولكنه عومل بقسوة وأعاده الاتراك الذين كرههم منذ ذلك الحين. وكان لديه قوة هائلة لتحريك الأشخاص بكلماته، وقد وصفه أولئك الذين سمعوه بأنه يتكلم بقوة إلهية تقريباً بحيث أنه حيثما توجه كان يتبعه الناس رجالاً ونساء، وتنقل خلال الشهور الأولى من سنة 1096 خلال شمال فرنسا يعظ ويبشر، ثم عبر سهل اللورين ووادي الموز إلى آخن وكولونيا التي وصلها في أسبوع الآلام، الذي يسبق عيد الفصح، ومعه أكثر من خمسين ألف تابع.

كان القليل منهم محاربين عاطلين أو فرسان فقراء ودعي أحدهم ولتر سانسغيور الذي شغل دوراً قيادياً في أحداث قتالية، ولكن كان معظمهم من الفلاحين والمنبوذين والرعاع في أحداث مجتمع العصور الوسطى. وكان معه على الأغلب بين عشرين وثلاثين ألفاً رغم صعوبة تحديد أعدادهم ولأن المدونات المعاصرة مبالغ فيها إلى حد كبير ومختلف.

وكان نجاحه رائعاً، ويرد على الأقل إلى قسوة الظروف والأحوال، فقد تفشى الطاعون في أوربا عام 1083، واكتسحت الفياضانات بلاد فرنسا وألمانيا في 1094، ودمرت المحاصيل، كما أتت السنة التالية بجفاف، وكانت النتيجة المجاعة، وخلال فترات المجاعة في العصور الوسطى كان الرجال والنساء يكرهون على السفر لمسافات بعيدة بحثاً عن أسباب المعيشة، وكتب غلابر أوف كلوني في أوائل ذلك القرن، وقت مجاعة واصفاً كيف كان المسافرون أحياناً ينزلون في فنادق محلية لمبيت ليلهم، فيذبحون أحياء خلال نومهم من قبل مضيفيهم، الذين كانوا يأكلونهم في اليوم التالي، وقد ذكر أن كاهناً كان يقيم في غابة تشاتني كان قد دفن جثث ثمانية وأربعين شخصاً قتلهم وأكلهم قبل أن تكشف جرائمه، وكان عندما تنجو المحاصيل من الآفات كان الضغط السكاني على المصادر هائلاً في الأرياف حيث كان يكثر دوماً الفلاحون الفقراء والجائعون الذين يطردون خارج أعمالهم. بينما حوت المدن العديد من المتسولين بين سكانها، حيث لم يتوفر لهم أماكن إقامة أو طعام يأكلونه، وحتى هدنة الرب قد أدت إلى جعل الحياة أكثر تعقيداً بالنسبة لفئة من الناس لم تكن من الفرسان فحسب، والذين كان شغلهم الشاغل دوماً القيام بالحروب بين بعضهم خارج العمل، بل أيضاً لديهم رجالهم المستأجرون في القتال غير المحدود، وقد حاولوا في ذلك الوقت أن يطوفوا في الريف على شكل عصابات تسرق وتنهب الجميع بسبب اليأس. وكانوا شائعين في الريف حول برابانت، حتى أصبحوا يعرفون ببراياكان رغم أنهم يعزون بشكل مطلق إلى أرض الراين، وكان إغراء الناسك بطرس لمثل هؤلاء الناس للانضمام إلى

جيوش المسيح، والزحف معه لفتح القدس عملاً لا يقاوم، فقد ظن أغلبهم ببساطتهم، أنهم كانوا يزحفون إلى قدس جديدة موعودة في الأمل المسيحي، أو أنها تلك المدينة مدينة الذهب والأحجار الكريمة، يأكلونه، وحيث نوافير دائمة من المياه، فلا يعطشون، ثم يمسح الرب كل دموعهم من أعينهم.

ولم تكن هناك من مدينة في العصور الوسطى بامكانها إطعام زائرين يصل عددهم إلى عشرين ألفاً، ولم تكن مدينة كولونيا مستثناة من ذلك، وعلى أية حال، كان العديد من أتباع بطرس لا يملكون الصبر للانتظار أو التريث في طريقهم إلى القدس، ولذلك فإنه بعد أيام قليلة من عيد الفصح قرر ولتر سانسغيور وعدة آلاف من الفرنسيين التحرك، واتخذوا طريقاً شمال نهر الراين، ثم نزلوا إلى حوض الدانوب، ثم إلى هنغاريا في شهر أيار، ولم يعتبرهم حاكم هنغاريا الملك كولمان جيشاً مخيفاً لأنهم لم يكونوا يتعدون في نظره حشداً من الحجاج المسلحين ينبغي مساعدتهم حيثما كان ذلك ممكناً، وسمح لهم بالعبور خلال بلاده، وفعل ما في وسعه ليزودهم بالمؤن خلال طريقهم، وسار كل شيء على ما يرام حتى اجتازوا داخل الأراضي البيزنطية قرب بلغراد، حيث فاجأ قدومهم الحاكم العسكري المحلي ولم تكن محاصيل ذلك العالم قد نضجت بعد، ولم يكن في الأسواق الا القليل من المؤن للبيع، وعندما بدأ الجوع يدب فيهم أصبحت أمزجتهم نارية، وسرقت مجموعة من المتشردين سوقاً في مدينة هنغارية حدودية صغيرة، كانت قد مرت بها جماعة قبل ذلك، وأوقفت السلطات أفرادها فجردتهم من أسلحتهم وعرتهم من ثيابهم وأرسلتهم لينضموا إلى الباقين عند بلغراد، وأدى هذا إلى بدء هؤلاء بعمليات السلب والنهب للطعام في الريف، وعندما أرسل الحاكم العسكري فرقاً عسكرية لإعادة النظام، كان قد قتل العديد من الفرنسيين، بينما أحرق آخرون أحياء في كنيسة كانوا قد لجأوا إليها للأمان. وانفجر الوضع أثر ذلك، ولكن ما لبث أن استعيد النظام، وأدرك ولتر وجوب تحريك رجاله باتجاه نيش بالسرعة الممكنة، فهناك أخيراً كان يتوفر الطعام، فقل غضب الصليبيين،

وعادت الأحوال بعد ذلك إلى التحسن حيث واكب جنود بيزنطيون القادمين الجدد بحذر عندما تابعوا رحلتهم، ووصلوا إلى القسطنطينية دون أزمات أخرى في تموز.

وفي تلك الأثناء، كان بطرس الناسك قد غادر كولون بعدد أضخم من الحجاج المسلحين في قافلته التي تضمنت عدداً من المحاربين الألمان وأبناء الأسر النبيلة في زحف متقدم باتجاه الحدود الهنغارية في نفس الطريق التي طرقها ولتر ورجاله، بينما تخلف بعض مريديه ليجندوا كثيرين من الألمان فوق ذلك في جيوش المسيح، ويأتي بينهم بالدرجة الأولى راهب اسمه غوتشولك ورجل كان يدعى ايمش كونت منطقة ليزنغتان الذي سنسمع عنه الكثير في المستقبل القريب، واستقبل أيضاً بطرس باللطف من قبل ملك هنغاريا كولمان، وسارت الأمور على ما يرام حتى وصل إلى إحدى المدن الحدودية الصغيرة حيث اصطدم رجال ولتر مع السلطات وجردوا من أسلحتهم، وكان هؤلاء لا يزالون مشنوقين فوق سور المدينة ليراهم الناس. ولم يمض وقت طويل قبل انتشار الإشاعات الوحشية خلال الحشد المنيع الضخم، حول مدى فظاعة المعاملة التي تلقاها أصحابهم، وانفجر العداء ضد الهنغاريين، وتحولت مشاجرة بشأن شراء زوج من الأحذية إلى غضب عارم، أصبح فيما بعد معركة ضارية، وهاجم رجال بطرس المدينة حيث نهبوا الأسواق والمحال، وقتل من جراء ذلك أربعة آلاف هنغاري، وبذلك فقط وخوفاً من رد فعل الملك كولمان على الأحداث في ذلك اليوم حاولوا عبر نهر سافي إلى داخل الأراضي البيزنطية.

وكان الحاكم العسكري المحلي قد أخفق في التغلب على مصاعب ومشاكل وصول رجال ولتر قبل أسابيع قليلة. وكان في ضيق أكبر حيث لم يعرف كيف يتعامل مع رجال بطرس في جيش من التابعين الثائرين الذين كانوا كثيرين بالنسبة إليه ليعترض سبيلهم وقرر أن يتقهقر إلى نيش ليطلب من هناك إمدادات عسكرية عديدة قدر الإمكان، وأذن لبعض المرتزقة الأتراك أن

يتخلفوا لمحاولة إعاقتهم عندما يبدأون عبور النهر، وكانت مهمة يائسة وعندما حاول الأتراك الضعفاء التدخل أسروا وقتلوا، وأحدثت أنباء القتال ذعراً وهلعاً في بلغراد، حيث فر الكثيرين إلى الجبال تاركين المدينة مفتوحة لرجال بطرس الذين دخلوها دون مقاومة فسلبوها وأحرقوها ثم زحفوا بما لديهم من المؤن التي نهبوها من الأسواق في المدينة خلال غابات هائلة من شجر البلوط والسنديان في الصرب حتى وصلوا إلى نيش.

ولدى وصولهم، طلبوا الأذن لشراء بعض الطعام فوافق الحاكم برضى كافٍ، وطلب بعض الرهائن في مقابل التصرف الجيد، وأعطى بطرس هؤلاء، ومرة أخرى سارت الأمور على ما يرام لفترة من الوقت، ولكن عند آخر لحظة حينما كان الجيش يغادر المدينة تشاجر بعض الألمان مع بعض السكان المحليين وأضرموا النار في بعض الطواحين عند النهر، فسارع الحاكم العسكري إلى إرسال فرق هاجمت الصليبيين الراحلين، وبدأ قتال ضارٍ. وسارع بطرس للعودة وإحياء السلام، ولكن قبل أن يصل انعطف جيشه وهاجم المدينة بضراوة، فردتهم حاميتها على أعقابهم، لكنهم عادوا إلى الهجوم، وفي هذه المرة أصدر الحاكم البيزنطي أمره إلى قواته كلها بالتحرك والقتال، وكان الصليبيون أشبه بعصابة منهم بجيش منتظم، ولم يكونا ليضاهوا جنوداً محترفين، ولذلك هزموا هزيمة منكرة، وقتل الكثير منهم وأسر أكثرهم مع نسائهم وأطفالهم، أما بطرس الذي فقد ماله في المعركة فقد فرّ في ذعر ومعه حوالي خمسمائة آخرين إلى الجبال، حيث اعتقدوا أنهم الناجون الوحيدون من الكارثة. وانضم إليهم في اليوم التالي عدة آلاف آخرين فزحفوا باتجاه صوفيا، وانضم إليهم كثير من المتشردين حتى اتضح لهم أنهم قد فقدوا ما يقارب ربعهم، وكان هذا سيئاً، ولكن ربما كان من الممكن أن تكون الأمور أسوأ.

وبعد ذلك، سارت أمور رحلتهم هادئة بشكل كافٍ واجتازوا صوفيا دون مشاكل. وكان الاغريق أصدقاء لطفاء معهم، وقد أرسل الأمبراطور ألكسيوس إلى بطرس رسالة ترجيب، وقد تحملوا مشاقاً كثيرة، وغمر بطرس شعور

بالعرفان، وانتهت بقية الرحلة إلى استنبول دون مشاكل، ولدى وصولهم قام رجال بطرس ببعض الازعاج، وسرقوا مثل الأغربة مقتحمين المنازل والقصور على السواء، وسرقوا صفائح الرصاص من سطوح الكنائس إلى حد أن ألكسيوس كان مجبراً على ترحيلهم عبر مضيق البوسفور داخل آسيا بأسرع ما يمكن، ولم يفكر فيهم أكثر من قوة مقاتلة صغيرة، ونصحهم بالانتظار حتى قدوم الامدادات العسكرية من أوروبا قبل الشروع بالدخول في قتال مع الأتراك، ثم فعل ما وسعه لتحذيرهم من الأخطار التي تنتظرهم، وجعلهم ينتقلون إلى معسكر كبير دعي سيبوتوس على الساحل الآسيوي من بحر مرمرة، وليس بعيداً عن نيقوديميا حيث التقوا مع ولتر سانسفيور ورجاله وبعض الايطاليين الذين قدموا على نحو مستقل، وفي طريقهم إلى هذا المعسكر تشاجر الألمان والفرنسيون لسبب ما، وأنكروا قيادة الناسك بطرس واختاروا بدلاً عنه نبيلاً إيطالياً دعي رينالد وحينما وصلوا إلى سيبوتوس لم يكونوا على علاقات طيبة مع رفاقهم المسيحيين من فرنسا، ولم تكن هذه بداية مبشرة بالنجاح بالنسبة للمعسكر ضد أعدائهم.

وقد كان ألكسيوس حكيماً في اخراجهم بعيداً عن القسطنطينية، ولم يكونوا منظمين ولا موجهين، وحالما وصلوا إلى مقصدهم شرعوا يغيرون على الريف متجاهلين نصيحة الامبراطور الجيدة، بعدم القيام بأي هجوم حتى تأتيهم الامدادات، وفي البداية لم يخاطروا في التغلغل بعيداً داخل الأراضي التركية، راضين بسرقة ونهب القرى القريبة التي كانت فريسة سهلة، ولم يخطر ببالهم أن القرويين السيئي الحظ كانوا جميعاً من المسيحيين الاغريق الذين قدموا على ما يظهر للمساعدة، وكان الأسوأ هو الآتي ففي شهر أيلول قامت قوة كبيرة من آلاف الفرنسيين بعمل حاسم وزحفت متقدمة حتى مسافة نيّفية (إزنيق حالياً) عاصمة السلطان التركي المحلي الذي صدف أنه لم يكن قريباً في ذلك الوقت، ولم يجرؤوا على مهاجمة المدينة نفسها، بل اكتفوا بمهاجمة القرى في الضواحي، ونهبوا ما وجدوه من المواشي، وقتلوا وعذبوا القرويين

المسيحيين بوحشية لا تصدق، إلى درجة أنهم أضرموا النيران وأحرقوا وشوهوا الأطفال، وقد أمكن بسهولة صدّ قوة من الأتراك هاجمتهم خارج المدينة وأعادتها إلى المدينة وعاد الفرنسيون عند ذلك إلى سيبوتوس محملين بالغنائم. وهم في غاية النشوة والسرور. ولم يكن الإيطاليون والألمان راضين، ففي نهاية الشهر خططوا للقيام بحملة خاصة بهم، فانطلق أكثر من ستة آلاف رجل تحت قيادة رينالد في اتجاه نيقية يسلبون ويغنمون حيثما ذهبوا. ولكن على خلاف الفرنسيين كانوا يستثنون المسيحيين في طريقهم، كما نجحوا في الاستيلاء على قلعة مهجورة كانت تدعى السرغوردن التي قرروا استخدامها كقاعدة، يمكن أن يغيروا منها على الأرياف المحيطة، ولكنهم لم يبقوا فيها إلا لفترة قصيرة حيث ظهرت أمامهم قوة تركية كبيرة، فاضطر الصليبيون إلى الالتجاء إلى القلعة التي حاصرها الأتراك مباشرة، ولسوء الحظ لم يكن هناك مورد مائي في المنطقة بالنسبة للرجال المحصورين داخل القلعة إلا نبع واحد فقط يقع في واد صغير خارج أسوار القلعة، وسرعان ما دب فيهم العطش إلى حد الجنون، وروى مؤرخ أحداث معاصر كيف عذبوا بعطشهم إلى درجة أنهم كانوا يستخرجون الدماء من عروق حميرهم وخيولهم ويشربونها، بل كان يبول بعضهم في أيدي الآخرين للشرب، أما البعض الآخر فكان يحفر الأرض بحثاً فيها عن الرطوبة، وينثر التراب فوقه لتهدئة العطش القاتل، ودام هذا الوضع ثمانية أيام حيث عرض رينالد الاستسلام إذا منح الأمان ولكن الأتراك لم يعدوا بشي عدا الابقاء على أرواح أولئك الذين يرتدون عن العقيدة المسيحية، ولم يكن لدى رينالد إلا خيار واحد أن يقبل فتخلى ومعه قليلون آخرون عن المسيحية، وبيعوا كرقيق وقتل الباقون.

وأحدثت أخبار الكارثة عندما وصلت إلى سيبوتوس كثيراً من الهلع والذعر، ولما كان بطرس الناس خارجاً في القسطنطينية، اجتمع القادة الباقون بسرعة ليقدروا الموقف، واشتمل الاجتماع على ولتر ونبيلين ألمانيين لم ينضما إلى حملة رينالد التي قادها إلى اكسرغوردن، وكان الرؤساء بينهم في

جانب الحذر والحرص، حيث حاولوا أن يبرهنوا أنه لم تكن هناك من غاية في الاسراع بإرسال حملة على نحو طائش لمهاجمة الأتراك، وكان من الأفضل التريث بانتظار وضع قوي يمكن الدفاع فيه بسهولة، والسماح للأتراك بالقدوم إليهم، وبالنسبة لذلك الوقت انتظروا، ولكن لم تمض أيام كثيرة حتى انتشرت الأخبار بأن الأتراك يتقدمون نحو المعسكر في قوة، وهنا قام أشخاص متهورون عديدون من الجيش يقودهم شاب فرنسي يدعى غودفري بورل، وقرروا أنه من الجبن المطلق التقاعس والبقاء في المعسكر، بينما كان العدو يتقدم على مهل، وكانت صرخات «الجبن» تثير عواطف غير منطقية وقوية، وتمكن غودفري وآخرون معه محبين للقتال، من كسب ما يريدون، ومع نهاية شهر تشرين الأول كان الجيش كله قد تحرك خارج سيسبوتوس، وزحف ضد الأتراك مخلفاً وراءه النساء والأطفال وبعض رجال الدين والكهنة.

وعلى مسافة ثلاثة أميال خارج المعسكر كانت ثمة طريق تمر بواد ضيق، وإلى جانبه غابة، حيث تربص الأتراك الذين تلقوا الأخبار، واختبأوا في مكمن في حين لم يتخذ الصليبيون الحيطة، وكانوا يسيرون في شكل حشد كبير غير منتظم على نحو فوضوي يصرخون، ويضحكون، تتقدمهم في الطليعة الفرسان فوق صهوات الخيول، ولذا فقد أخذوا على حين غرة على نحو كامل. فمزقهم وابل من النشاب في ضربة لازبة وقتل العديد من الخيول تحت الفرسان بينما تراجع الآخرون في خوف وألقوا أسلحتهم ودروعهم إلى الأرض فارين بأنفسهم إلى خلف صفوف المشاة التي دب فيها الذعر والفوضى، وقبل أن يستطيع أي شخص استعادة أي نوع من النظام، خرج الأتراك من مكمنهم وحملوا بضراوة على الصفوف المنتظمة داخل حشد الجنود المسيحيين المقاتلين، الذين وقع بعضهم فوق بعض بشكل طائش للنجاة، أما الفرسان الذين لم يقتلوا في وابل النشاب الأول فقد قاتلوا بشجاعتهم المعتادة، ولكن بدون جدوى، أما الأكثرية الساحقة من الصليبيين فلاذوا بالفرار على نحو غير منتظم، عائدين عبر الطريق إلى سيبوتوس.

وعند المعسكر كان النهار يبزغ، وكانت النساء تطبخن الطعام لأطفالهن، وكان البعض لا يزال نائماً، وبدأ الكهنة بترتيل القداس عندما بدت غيمة كبيرة من الغبار عبر الطريق، وصراخ وضجة وأصوات غير واضحة لرجال في معركة، أرسلت موجة من الخوف عبر المكان وكان القتال يقترب مع شعور مرعب من الانهيار والموت نفسه، وتشتت الجيش المنهزم داخل المعسكر، في حين كان الرجال يتعثرون ويقعون فوق بعضهم البعض من شدة طيشهم اليائس لتجنب الأتراك المطاردين، فلم يكن هناك إمكانية للمقاومة، فكانت مذبحة صرع فيها الأطفال والنساء والجنود الفرسان، وأيضاً الكهنة عندما ركضوا يصرخون للأمان، أو عندما أخذوا يلهثون وكانوا غير قادرين على الفرار أكثر من ذلك، واستثنيت قلة من الفتيات والفتيان الذين استحوذوا على الاعجاب، وأسرهم الأتراك، وتوقف القتال عندما شعر جنود الاسلام بالاكتفاء وكان ما يقارب ثلاثة آلاف شخص قد فروا من المذبحة والتجأوا إلى قلعة قديمة على شاطئ البحر، حيث عضهم اليأس، وأقاموا بعض المتاريس والحواجز ضد الهجوم وعلى كل حال انتهت المعركة.

وبمعجزة ما، استطاعت القلعة مقاومة محاولات هجمات الأتراك، وتمكن اغريقي محلي من شق طريقه إلى القسطنطينية حاملاً أنباء النكبة، فأرسل الكسيوس على الفور أسطولاً من السفن الحربية إلى سيبوتوس لانقاذ الباقين، وعندما رآهم الأتراك مبحرين نحو البحر رفعوا حصارهم عن القلعة وتقهقروا داخل البلاد، وأخذت البقية من أبناء بطرس إلى العاصمة حيث جردوا من أسلحتهم، ونزلوا في ضواحي المدينة، وخلفوا وراءهم جثث القتلى مبعثرة في الريف من الوادي الصغير حيث انقض عليهم الأتراك نزولاً حتى شواطئ بحر مرمرة بما فيها جثث ولتر ومعظم المحاربين الألمان، وفرّ غودفري هارباً وهو الذي قام بالدور الأكبر في أحداث هذه النكبة أكثر من أي شخص آخر.